الاستعمار الفرنسي لمصر في ظروفه الزمانيَّة والمكانيَّة
المقدمات التاريخيّة - الأسباب الموضوعيّة والنتائج

غيضان السيِّد علي[١]

تمهيد

شهدت نهاية القرن الثامن عشر الميلادي استئنافًا جديدًا للحملات الصليبيّة على الشرق الإسلامي بعد توقّف دام ما يزيد على خمسة قرون؛ حيث امتدّت الحملات الصليبيّة من أواخر القرن الحادي عشر حتى العقد الأخير من القرن الثالث عشر الميلاديّ (١٠٩٦-١٢٩١م). وقد تمثّل هذا الاستئناف في حملة فرنسيّة على مصر بقصد الاستيلاء على خيراتها، ونهب ثرواتها، ثم احتلالها وجعلها نواةً لإمبراطوريّة فرنسيّة في الشرق تكون قاعدتها مصر. هذا فضلاً عن تحقيق جملة من المآرب الاقتصاديّة والسياسيّة والاستراتيجيّة فرضتها الظروف والأحوال في ذلك العصر.

لم تكن فكرة احتلال مصر وليدة اللحظة التي جاءت فيها الحملة إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، بل هي حلم فرنسي قديم يعود إلى القرن السابع عشر أيّام حكم الملك لويس الرابع عشر (١٦٦٢-١٧١٤م)؛ حيث قدَّمَ له الفيلسوف الألماني ليبنتز مخططًا متكاملاً لغزو مصر تحت عنوان: **(Aegyptiacum Consiluam)** بهدف ضرب التجارة الهولنديّة في الهند التي تمرّ عن طريق مصر، لكن الملك رفض الخطة؛ لأنَّ الظروف السياسيّة لم تكن مؤاتية لمثل هذا الغزو، خاصة أنّ فشل الحملات الصليبيّة وهزائمها المنكرة لم تكن قد مُحيت تمامًا من ذاكرة الغربيّين، وتحسّبًا لعداوة الدولة

١. أستاذ بكلية الآداب، جامعة بني سويف - مصر.

العثمانيَّة التي كانت لا تزال مرهوبة الجانب، وخوفًا من أن يصطدم الجيش الفرنسي بالأسطول الإنجليزي وهو في طريقه إلى مصر، فتفقد فرنسا جيشًا من خيرة جيوشها. ثمّ تكرّرت الدعوة مرة أخرى لاحتلال مصر في عهد لويس الخامس عشر (١٧١٥-١٧٧٤م) ثمّ لحقتها دعوة مماثلة في عهد الملك لويس السادس عشر (١٧٧٤-١٧٨٩م) لكن كان مصير كلا الدعوتين كمصير أولاهما هو الرفض، بيد أن الأمر قد تغير تمامًا بعد الثورة الفرنسيّة التي قامت في ١٤ يوليو ١٧٨٩م باقتحام سجن الباستيل والقضاء على الحكم الملكي الإقطاعي وإعلان الجمهورية. وقد تزامن هذا مع بداية عصر انهيار الدولة العثمانيَّة المترامية الأطراف التي أدركتها الشيخوخة والهرم، وتفشت الثورات في أرجائها؛ فثار عليها على بك الكبير في مصر، وأحمد باشا الجزّار في الشام، والوهابيّون في شبه الجزيرة العربيّة، وعلي باشا في ألبانيا، والشعوب المسيحيّة في البلقان، حتى أصبحت السيادة العثمانيَّة سيادة اسمية فقط، وازدادت أطماع الدول الأوروبيَّة في ولاياتها، وما كانت الحملة الفرنسيّة على مصر سوى فصل من فصول أطماع الدول الأوروبيّة في ولاياتها، وحلقة من حلقات الصراع الأوروبي (الإنجليزي - الفرنسي).

فما هي الخلفيّات التاريخيَّة وراء قدوم الحملة الفرنسيّة إلى مصر؟ وما هي أهدافها الاستراتيجيَّة؟ وكيف كانت ظروف مصر وقت مجيء الحملة؟ وكيف جرت وقائعها الميدانيّة الرئيسة؟ وما هي أهم الآثار والنتائج التي ترتّبت على مجيء هذه الحملة؟ وإلى أيّ مدى يصدق رأي المنبهرين بالغرب على أنّ الحملة الفرنسيّة حدث فريد واستثنائي، وأنّها قد أيقظت مصر والعرب والمسلمين من سباتهم العميق؟ تلك هي أهم الأسئلة التي سيحاول هذا البحث الإجابة عنها.

وهنا تكمن أهميّة هذا البحث؛ إذ يلقي الضوء على تاريخ الاستعمار الفرنسي لمصر في ظروفه الزمانيَّة والمكانيَّة (الخلفيّات، الأهداف الاستراتيجيّة، الظروف المحيطة، الأسباب، الوقائع الميدانيّة، النتائج والآثار) من خلال وجهة نظر موضوعيَّة بعيدًا عن تلك الرؤى المنبهرة بالغرب في كل شيء حتى في احتلاله لنا! كما يقف على حقيقة

الاستعمار الفرنسي وأغراضه الحقيقيَّة الخبيثة التي تمثّلت في نهب خيرات وثروات مصر، واستغلال موقعها الجغرافي لإقامة امبراطوريّة فرنسيّة في الشرق، هذا فضلاً عن الرغبة المحمومة في وأد اليقظة الإسلاميّة التي بدأت تتبلور في المجتمع الإسلامي في مصر والشام والحجاز، وسرقة النفائس العلميّة، والسعي لنشر البدع والمنكرات بين أبناء الأمّة، ونشر السفور والخلاعة والمجون والمنكرات لتغييب هويّة المجتمع الإسلاميّة.

وقد استخدم الباحث في إنجاز بحثه مجموعة من المناهج البحثية، لعلّ أهمّها المنهج التاريخي الذي يتمّ من خلاله سرد الوقائع والأحداث مرتبة زمنيًّا. والمنهج التحليلي الذي يعمل على تحليل النصوص وعرض الأفكار ومناقشاتها، وكذلك المنهج الوصفي؛ إذ إنّه الأنسب في وصف مجريات الحملة الفرنسيّة على مصر.

وللتناول الجيّد لهذا الموضوع قسَّم الباحث بحثه إلى مقدمة وخاتمة وأربعة محاور أساسية؛ إذ تناولت المقدمة أهمية الموضوع وتساؤلاته ومناهجه. وتناول المحور الأوّل: الخلفيات التاريخيَّة للحملة الفرنسيّة على مصر، بينما تناول المحور الثاني: أسباب الحملة الفرنسيّة على مصر. في حين تناول المحور الثالث: الوقائع الميدانية للحملة الفرنسيّة. ليأتي المحور الرابع ليرصد لأهم الآثار والنتائج التي ترتّبت على مجيء الحملة إلى مصر. ثمّ عرضت الخاتمة لأهم نتائج البحث.

أوّلًا: الخلفيّات التاريخيَّة للحملة الفرنسيّة على مصر

يمكننا الحديث عن الخلفيّات التاريخيَّة للحملة الفرنسيّة على صعيدين اثنين، الأوّل يدور حول أحوال فرنسا في العقد الأخير من القرن الثامن عشر. والثاني يدور حول أحوال المجتمع المصري قبيل مجيء الحملة الفرنسيّة. وهو ما سنعرض له فيما يلي:

١- **الأحوال في فرنسا**: كانت الثورة الفرنسيّة التي قامت في ١٤ يوليه ١٧٨٩م من أهمّ الأحداث التي شهدها تاريخ فرنسا الحديث؛ حيث قامت بتغييرات راديكاليّة داخل المجتمع الفرنسي؛ وجاءت بمفاهيم جديدة للعصر الحديث أثَّرت في المبادئ والنظم السياسيّة والاقتصاديّة، وأجرت تحولّات سياسيّة واجتماعيّة كبرى في التاريخ السياسي

والثقافي لفرنسا بوجه خاص وأوروبا بوجه عام. وقد قامت هذه الثورة بقيادة الطبقة الجديدة (البرجوازيّة - الوسطى) من أصحاب المصالح التجارية والصناعية الجديدة بالتحالف مع طبقة العامّة. كما عملت حكومات الثورة الفرنسيّة على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الارستقراطية، ونفوذ رجال الدين. ودخلت فرنسا بعد الثورة في تجارب مختلفة من أشكال السلطة التنفيذيّة والتشريعيّة؛ فقامت الجمعيّة التشريعيّة، ثمّ المؤتمر الوطني، ثم حكومة الإدارة التي جاءت في عهدها الحملة الفرنسيّة على مصر[١]. وقد شهدت تلك الأحوال الجديدة في فرنسا بعد الثورة تغيرات خارجية أيضًا لا تقل أهمية عن تلك التغيرات الداخلية. وسوف نعرض بإيجاز لأهم الظروف الداخلية والخارجية لأحوال فرنسا قبل مجيء الجملة الفرنسيّة إلى مصر مع مراعاة التركيز على تلك الأحوال والظروف التي كانت من الأسباب المباشرة أو غير المباشرة لمجيء الحملة إلى مصر.

أ- الصراع الفرنسي الإنجليزي: شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر ذروة الصراع بين إنجلترا وفرنسا؛ إذ استطاعت إنجلترا تأسيس شركة الهند الشرقيّة، فتمكّنت في زمن قياسي من السيطرة على مقاليد التجارة العالميّة، وهو الأمر الذي هدّد اقتصاد فرنسا بنسبة كبيرة. في حين أنّ قيام الثورة في فرنسا والقضاء على الحكم الملكي وإعلان الجمهورية قد أصاب ملوك أوروبا بالرعب والخوف على عروشهم، ومن ثمّ بدأوا سياسة التحالف فيما بينهم للقضاء على الثورة في فرنسا وإعادة الملكيَّة، أو على أقلّ تقدير منع تسرّب مبادئها خارج حدود فرنسا[٢]. ولذلك لم يكن غريبًا أن تشنّ إنجلترا مع حلفائها أكثر من حرب ضد فرنسا، غير أنّ قوات الثورة بقيادة نابليون بونابرت أحرزت انتصارات كثيرة (خلال الفترة من ١٧٩٥-١٧٩٧م) على القوات المعادية لها، انتهت إجمالاً بتوسيع حدود فرنسا حتى بلجيكا ونهر الراين وربوع إيطاليا حتى البحر الأدرياتي والجزر الغربيَّة

١. القوصي، عطية وآخرون، الحضارة الإسلاميّة وتاريخ العرب الحديث، ص٧٥.

٢. م. ن، ص٧٦.

من مجموعة جزر أيونيا، حتى أصبحت فرنسا إحدى القوى العظمى في أوروبا. ومع كل انتصارات فرنسا على أعدائها إلاّ أن الانتصار المباشر على غريمتها التقليديّة (إنجلترا) ظلّ أمرًا صعب المنال؛ نظرًا لموقعها الجغرافي المنعزل عن القارة الأوروبيَّة، فقد كان من المتعذّر على الأسطول الفرنسي نقل الجيش عبر المانش أو بحر الشمال إلى إنجلترا بسبب وجود الأسطول البريطاني القوي في المانش[١]. ومن هنا استوجب الصراع ضرب المصالح الإنجليزيّة خارج إنجلترا، ومن ثم كانت فكرة غزو مصر.

ب- شكاوى التجّار الفرنسيين من سوء معاملة المماليك: لا شكّ في أنَّ رموز الثورة الفرنسيّة وقادتها كانوا من طبقة البرجوازيّة من أصحاب المصالح التجارية الجديدة، وكانت تجارتهم تعبر البحر المتوسط إلى مصر، وكانت شؤون مصر الداخلية تقع تحت حكم المماليك. وقد توالت شكاوى التجّار الفرنسيين في مصر من سوء معاملة المماليك لهم، حتى استجابت الحكومة لشكاواهم وعيّنت قنصلاً عامًا لفرنسا في مصر هو المسيو مجالون (**Magallon**) عام ١٧٩٣م الذي كان من كبار التجّار وعلى دراية واسعة بشؤون مصر، لذلك كان من أهمّ دعاة احتلال فرنسا لمصر؛ فلم يلبث أن حثّ حكومته على ذلك، مبيّنًا المزايا السياسيّة والاقتصاديّة التي ستعود عليها من استثمار مواردها، ومد سلطانها إلى البحر الأحمر وتهديد مصالح إنجلترا في الهند. وبيّن القنصل لحكومة بلاده سهولة احتلال مصر، واستطاع إقناع تالليران (**Talleyrand**)[٢] وزير الخارجيّة آنذاك برأيه، حيث التقى في هذه الفكرة مع بونابرت[٣].

ج- أحلام نابليون بتكوين إمبراطوريّة فرنسيّة في الشرق: مثَّلت انتصارات نابليون

١. نوار، عبد العزيز سليمان؛ جمال الدين، محمود محمّد، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ص٢٩٧.

٢. تالليران (**Talleyrand**) سياسي فرنسي كان أوّل أمره من رجال الإكليروس التحق بالثورة عند قيامها وخلع ثوبه الديني ثمّ صار نائبًا في البرلمان ثمّ وزيرًا للخارجيّة في عهد حكومة الإدارة.

٣. الشلق، أحمد زكريا، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١م)، فصل بكتاب: المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ص٦٧-٦٨.

المتتالية في أوروبا إغراءً حقيقيًّا لصاحبها، حيث بدأ يحلم بتكوين إمبراطوريّة فرنسيّة في الشرق تكون قاعدتها مصر. واكتمل الحلم في رأس نابليون بعد انتصاراته في إيطاليا وسكنه فيها، واحتلاله موطن يوليوس قيصر، وبالقرب من مقدونيا موطن الإسكندر الأكبر، وهو الأمر الذي أوحى إلى نابليون بتقليدهما في فتوحاته الكبيرة، فاختار مصر منجذبًا بعظمتها القديمة، وبات يحلم بتشييد إمبراطورية على ضفاف النيل تحقّق ما كان يجيش بصدره من آمال كبار، فيستطيع منها ضرب إنجلترا، وأن يجعل البحر المتوسط «بحيرة فرنسيّة»، ومن هنا اختمرت الفكرة في ذهنه وهو ما زال بإيطاليا، فجعل يفكر في مبرّرات ووسائل تحقيقها ليعرضها على حكومة الإدارة التي وافقت على طلبه[١]. كما أنّ الوضع السياسي المضطرب في باريس جعله يفضّل البقاء بعيدًا عن بلاده، لفترة طويلة، على أن يعود إليها كزعيم منقذ حين يحين الوقت فيقلب الحكم ويستلم السلطة. وقد أدرك وزير الخارجيّة «تالليران» بذكائه النفاذ ووصوليّته المتناهية أنّ الزمن يعمل لصالح بونابرت فربط مصيره به وتبنّى قضيّته أمام حكومة الإدارة، وأقنع رجالها بآرائه، وجعلهم يوافقون على تجهيز الحملة على مصر[٢].

د- تعدّد المزايا التي تعود على فرنسا من غزو مصر: كانت فرنسا تدرك حجم المزايا التي ستعود عليها من الاستيلاء على مصر، فقد كان ملك فرنسا لويس الخامس عشر يطمع في أن تتنازل له الدولة العثمانيَّة عن مصر، وتكرّرت الفكرة أيام لويس السادس عشر، وكان ذلك لتسهيل اتصال تجارة فرنسا في شرق آسيا عن طريق مصر، بدلاً من الدوران حول أفريقيا، ولكن طلبهما قوبل بالرفض التام من السلطان العثماني. وتجدّد الحلم خاصّة بعد الضعف النسبي الذي أصاب الدولة العثمانيَّة وأصبح احتلال مصر لا يحتاج أكثر من بضعة أشهر بقوة لا تزيد عن ثلاثين ألف جندي. وأنّ هذه التكلفة بسيطة

١. الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١م)، م. س، ص٦٨.

٢. نوار، عبد العزيز سليمان؛ نعنعي، عبد المجيد، التاريخ المعاصر: أوروبا من الثورة الفرنسيّة إلى الحرب العالمية الثانية، ص٨٠.

جدًّا في مقابل المزايا الكثيرة التي ستجنيها فرنسا والتي يأتي على رأسها موقع مصر الجغرافي الممتاز باعتبارها ملتقى التجارة بين القارّات الثلاث، وأنه بإنشاء قناة تصل بين البحرين الأحمر والمتوسّط يمكن للسفن الفرنسيّة أن تصل للبحر الأحمر وتهاجم أملاك إنجلترا في الهند، فضلاً عن بسط سيادة فرنسا على البحر المتوسط. وقد أشاد بونابرت بعظمة مصر القديمة وذكر في مبرّراته أنّها من أخصب بلاد العالم، وأن في الإمكان ترقية زراعتها وإعادة منزلتها القديمة، إذا وَجَدَت بها حكومة حديثة وإدارة صالحة[١]. ومن ثم كان غزو مصر على رأس مشاريع حكومة الثورة في فرنسا.

٢- أحوال المجتمع المصري قبيل الحملة الفرنسيّة

كانت الأحوال في مصر على النقيض تمامًا منها في فرنسا، حيث كانت فرنسا تتجه نحو التقدّم والريادة وامتلاك أسباب القوة، أما أحوال مصر فقد كانت من سيّئ إلى أسوأ؛ لذلك كان من الضروري الوقوف على تلك الأحوال في مصر لكي نفهم تطوّر الحوادث، وأسباب الهزيمة، والفرق بين أوضاع المجتمع الفرنسي الأوروبي وأوضاع المجتمع المصري والعربي والإسلامي، ويمكن إيجاز الأحوال في مصر فيما يلي:

أ- انهيار الأوضاع الاقتصاديّة: اعتمدت دولة المماليك في بناء اقتصادها بشكل أساسي على عوائد سيطرتها على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، فكان اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح نهاية القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر بمثابة ضربة قاصمة للاقتصاد المصري المملوكي. وقد حاولت مصر -رغم المفاجأة- أن تدفع هذا الهجوم، وأن ترسل السفن إلى البحر الأحمر، والقوات العسكرية إلى اليمن لكي تمنع استيلاء البرتغاليين على عدن أو دخولهم البحر الأحمر وتهديدهم لموانئ الحجاز، وقد بذل السلطان المملوكي قنصوه الغوري كل ما في وسعه، إلاّ أنَّه لم يحقّق نتائج حاسمة[٢]. فتقلّصت صلات مصر التجاريّة وتأثّرت إلى حدّ كبير، هذا إلى

١. الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١م)، م. س، ص٦٨.

٢. طه، جاد، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة، ص١٣.

جانب عوامل أخرى لا تقلّ أهميّة أثَّرت بشكل كبير في تدهور الاقتصاد المصري، كان من أهمَّها: الضريبة الباهظة المفروضة على مصر للسلطان العثماني، وعدم استقرار الأمن الداخلي، والنزاع بين الفرق العسكرية، والنزاع المملوكي العثماني، والإغارات المتلاحقة لبدو الصحراء، فضلاً عن عدم ثبات العملة المتبادلة واختلاف المكاييل والموازين من مكان لآخر. ولقد ساعدت هذه الأحوال على انهيار الوضع الاقتصادي.

ب- تدهور الزراعة: كانت الأرض الزراعية ملكًا للحاكم يوزعها على أتباعه أو يوزعها على الفلاحين يزرعونها نظير دفعهم ضرائب فيما عُرف بحقّ الانتفاع، أي أن الفلاحين لا يمتلكون الأرض ملكية قانونيَّة، وإنّما يزرعونها مقابل تسديد الضرائب عنها، وكان يتولّى جمع هذه الضرائب مجموعة من الملتزمين يحصل الواحد منهم على التزام (امتياز) جمع الضرائب الخاصّة بناحية معيّنة من خلال مزاد عام تُعرض فيه حصة الالتزام، ويعطى الالتزام لمن يرسو عليه المزاد، وكان غالبًا ما يدفع الملتزم حصّة الالتزام مُقدمًا للخزينة[1]، ثم يتولّى هو جمعها أضعافًا مضاعفة من الفلاّحين، إذ يحصل الملتزم على «الفائض» أو فائض الالتزام[2]؛ وهو الفرق بين ما يدفعه للخزانة وبين حصيلة ما يجبيه فعلاً من فلاّحي القرية أو القرى الأخرى الواقعة في دائرة الالتزام. هذا فضلاً عن تخصيص قطعة أرض كبيرة من أجود الأرض الزراعية تسمى «الوسِيَّة» (عُشر مساحة دائرة الالتزام) للملتزم معفاة من الضرائب، تخصّصها الخزينة نظير جمعه للضرائب من الفلاحين الذين عانوا أشد أنواع المعاناة من استغلال وطمع الملتزمين وجشعهم وقسوتهم في التعامل مع الفلاّحين؛ حيث يقول الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»: «وكان إذا تأخّر الفلاح في دفع الضريبة جرّوه من شنبه وبطحوه وضربوه بالنبابيت رجال الملتزم، هذا عدا ما كان يراه من عسف الصراف النصراني من مماطلة في استخراج ورقة الخلاص، وكذلك

١. الحضارة الإسلاميّة وتاريخ العرب الحديث، م. س، ص٧٨.

٢. عمر، عمر عبد العزيز، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩م)، ص١٧٨.

الشاهد والشاويش اللذان كانا يسومانه أنواع العذاب»[١]؛ فقلّت نتيجة لذلك المحاصيل، وارتفعت الأسعار، واجتاحت البلاد مجاعات عديدة[٢]. وقد كان الملتزمون من شرائح اجتماعيّة مختلفة؛ فمنهم المماليك، ورجال العسكر، ومشايخ العرب، والعلماء والتجّار، بل والنساء فيما بعد. وأصبح الملتزم مع الزمن يورث هذا الحق لأبنائه، ومع تدهور الأحوال أصبحت الدولة لا تهتمّ إلّا ببيع الالتزام لمن يتعهّد بدفع مبلغ معيّن للخزانة[٣]. ونتيجة لذلك عانى الفلاحون من سطوة الملتزم وتدهورت أوضاع الزراعة، وزحفت الرمال على الأرض الخضراء، وهجر الفلّاحون قراهم[٤].

ج- **تأخّر الصناعة وانحطاطها:** وصلت الصناعة في القرن الثامن عشر في مصر إلى مرحلة يُرثى لها من الانحطاط[٥]، حيث كانت في معظمها صناعات يدوية بسيطة لم تصل مرحلة الصناعة الآلية كما كان الحال في ذلك الوقت في أوروبا؛ حيث لم تهتم الدولة بالصناعة، ولا بشؤون الصنّاع وتدريبهم. حيث كانت الدولة ممثلة في الوالي العثماني الذي كان يعيش حياة منعزلة تمامًا عن الواقع الحياتي المصري، بينما انشغل المماليك بصراعاتهم التي لا تنتهي، وكل ما كان يوجد هو طوائف حرفيّة، تسكن كلّ طائفة مكانًا منعزلًا عن بقية المجتمع كان يطلق عليه مسمى «حارة»، فنشأت حارة الصناديق، والمغربلين، والصاغة والنحّاسين... إلخ[٦]. وكان يرأس كل طائفة شيخ منتخَب ينظّم العلاقة بين أبنائها وبين المجتمع. كما يتولّى مهمّة الفصل في المنازعات وإنهاء المشاكل التي قد تحدث بين أفراد الطائفة[٧]. لكن هذه الطوائف تضرّرت بشكل كبير جراء إهمال

١. الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٤، ص٣٢٦.

٢. معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، م. س، ص١٥.

٣. م. ن، ص١٥.

٤. عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن، الريف المصري في القرن الثامن عشر، ص٩٢-٩٣.

٥. معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، م. س، ص١٥.

٦. عامر، عبد السلام عبد الحليم، طوائف الحرف في مصر، ص١٤.

٧. نجيب، عز الدين، وآخرون، موسوعة الحرف التقليدية في مصر، ج١، ص١٨.

الدولة لشؤونهم، هذا فضلاً عن قسوة الضرائب الباهظة التي كانت تُفرَض عليها بمناسبة أو دون مناسبة، حتى هجر كثير من الصنّاع والحرفيّين المصانع وتدهورت الصناعة بشكل واضح.

د-الأحوال الاجتماعيّة وقسوة الانقسامات الطبقية: بلغ عدد سكان مصر في ذلك الحين ثلاثة ملايين، ينقسمون إلى حكّام ومحكومين، وقد عانى المجتمع المصري تحت حكم المماليك والعثمانيّين من الطبقية المقيتة؛ حيث انقسم المجتمع المصري إلى طبقتين متمايزتين أشدّ ما يكون التمايز، وهما طبقة الحكام، وطبقة عامّة الشعب أو المحكومين؛ شملت الطبقة الأولى الأتراك والبكوات من المماليك الذين كان لهما السلطة والنفوذ. وقد استبدّ المماليك بحكم البلاد وكان عدد المقاتلة يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف مملوك ما بين مقدّمين وأمراء وكشاف وضباط وجاقات وأجناد وأتباع. وكان عددهم لا يزيد بالتناسل، لأنهم كانوا قليلي النسل، فكانوا يتمّمون نقصهم ويحفظون عددهم وعصبيتهم بالأرقّاء، يشترونهم فتيانًا وفتيات من الشركس الذين كانوا يُباعون في سوق الرقيق بالآستانة، فيعتنون بتربيتهم، وكثيراً ما يعتقونهم فيصبحون أحرارًا، ولكنهم يحفظون عهد أسيادهم ويكونون من حزبهم وعصبيّتهم. فمن هؤلاء المماليك، أحرارًا وأرقاء، كان يتكوّن جيش مصر[١]. أمّا طبقة المحكومين، فكانت تتألّف من شريحتين؛ أوّلهما تشمل المشايخ والعلماء وكبار الملاك والتجار والأفندية، وهؤلاء يمكن اعتبارهم شريحة وسطى. وثانيهما يتكون منها الشطر الأكبر من الأمة، وتشمل الفلاّحين وصغار الحرفيّين وعامّة الناس وهؤلاء يمثّلون الشريحة الدنيا من الطبقة الثانية. وكانوا في حالة يُرثى لها من الجهل والفاقة[٢].

هـ - الصراعات السياسيّة: تحوّلت مصر بعد هزيمة المماليك بقيادة السلطان طومان باي في ١٥١٧م إلى ولاية عثمانيّة، ولم يختلف الحكم العثماني في جوهره عن حكم

---

١. الرافعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القوميّة وتطوّر نظام الحكم في مصر، ج١، ص٥٩.

٢. م. ن، ص٦٢.

المماليك السابق عليه، إلّا في استحداث أساليب وأدوات التبعيَّة للسلطان العثماني. وقامت في مصر العثمانيَّة ثلاث إدارات تحكم مصر كلٌّ منها تراقب الأخرى، وهي: الوالي، وهو نائب السلطان ويلقب بالباشا ومقره القلعة، والديوان وسلطته مراقبة الوالي بل عزله، والبكوات المماليك ومهمّتهم إدارة شؤون البلاد. وقد حمل هذا النظام في طياته عوامل ضعفه بسبب قصر مدة حكم الوالي التي كانت في الغالب سنة واحدة ما لم يتم التجديد له، وكان أقصاها ثلاث سنوات. كما أن زيادة سلطة الديوان والحامية العسكرية تسبب في صراعات كان منشؤها أهواء رؤساء الجند والولاة. وانتهز المماليك فرصة استمرار النزاع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون على الانفراد بالحكم. فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطور مع الزمن، وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى تغليب سلطة البكوات المماليك، فأصبح لزعيمهم الملقب بـ«شيخ البلد» نفوذ لا يُعارض وكلمة لا تُرد، وصارت مشيخة البلد بمثابة إمارة مصر. مما أدى إلى عبث المماليك بالولاة وأخذوا يعزلون من لا يرضون عنه، كما عبثوا بالجزية، فكانوا لا يدفعون منها إلّا ما يروق لهم دفعه ويقتطعون منها ما يشاؤون بحجّة الإنفاق على مصالح البلد[١]. يضاف إلى ما سبق الأزمة الناتجة عن احتدام الصراع السياسي العسكري بين الأميرين المملوكين المسيطرين، إبراهيم بك ومراد بك، وتناحر أتباع كلٍّ منهما مما خنق البلاد بأزمات متوالية زاد من حدّتها فوضى الضرائب والإتاوات وانتشار أعمال العنف التي تعاقبت بشكل مريع خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر[٢].

نخلص ممّا تقدّم أنّ أحوال المجتمع المصري كانت على النقيض تمامًا مع أحوال المجتمع الفرنسي؛ حيث كان الأخير في تقدّم مستمرّ بالعمل والإنتاج، ووصل إلى مرحلة من التنوير الدينيّ والثقافي والسياسيّ من حيث الثورة على تسلّط رجال الدين المسيحيّ، ورفض الحكم الإلهيّ المطلق وإقامة الجمهورية وإعلان مبادئ الحرّيّة والإخاء والمساواة

١. تاريخ الحركة القوميّة وتطوّر نظام الحكم في مصر، م. س، ص٣٥.

٢. الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١م)، م. س، ص٦٦.

لكافة المواطنين؛ فانطلق الفكر البشري من عقاله ليرتاد أفاقًا فسيحة في كافة المجالات؛ فطوّر فنون الحرب والقتال وأدواته، وانطلق ليكتشف العوالم الجديدة في مجاهل البحار والمحيطات، وانفتحت شهيّته للغزو والاستعمار وتكوين الإمبراطوريات. أمَّا المجتمع المصري فكان يعاني من تدهور على كافة المستويات؛ أوضاع اقتصاديّة راكدة منهارة، وصناعة يدويّة بسيطة تعاني من عدم وجود المواد الخام وفرض ضرائب باهظة، وزراعة متدهورة لغياب الاهتمام التام بشؤونها من الدولة، وفلّاحون مقهورين، وصراع سياسي محموم بين الولاة والمماليك، والمماليك وبعضهم... إلخ. وبالمقارنة بين المجتمعين نلاحظ أنَّ ميزان القوّة الماديّة والتفوق الحضاري والعسكري كان في صالح المستعمر الفرنسي.

ثانيًا- أسباب الحملة الفرنسيّة على مصر

تنوّعت الأسباب الفرنسيّة وراء غزو مصر بين أسباب سياسيّة وأسباب اقتصاديّة وأسباب استراتيجيّة. ولا شكّ في أنّه كانت هناك أسباب معلَنة غير حقيقيّة وأخرى غير معلنة حقيقيّة، وسوف نقف عليها هنا بما يتناسب مع نطاق بحثنا.

١- **أسباب معلَنة:** أعلن الفرنسيّون مجموعة من الأسباب ادّعوا أنَّها الأسباب الحقيقية لمجيء الحملة الفرنسيّة إلى مصر، وكان أهم هذه الأسباب:

(أ) تأديب المماليك: زعم الفرنسيّون أنَّهم ما أتوا إلى مصر إلّا لتأديب المماليك وتحرير المصريّين من ظلمهم واستبدادهم؛ حيث عمد في منشوره إلى المصريّين بتذكيرهم بأنهم ينتمون إلى إقليم هو أحسن بلد في العالم، وأنّهم أمّة لم تبدأ من فراغ، بل بدأت من مجد عريض، وأنها طاولت الزمان وجودًا، وصنعت الحضارات صنعًا[1]. وقال: «إنّ من زمان مديد الصناجق الذين يتسلّطون في البلاد المصريّة يتعاملون بالذلّ والاحتقار في حقّ الملّة الفرنساويّة، يظلمون تجّارها بأنواع الإيذاء والتعدّي؛ فحضر الآن

١. الشناوي، عبد العزيز محمّد، الأزهر جامعة وجامعة، ج٢، ص١٤.

ساعة عقوبتهم، وأخرّنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة (القوقاز) والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، فأمّا ربّ العالمين القادر على كلّ شيء فإنَّه قد حكم على انقضاء دولتهم»[١].

(ب) مساعدة المصريّين في إدارة شؤون بلادهم: زعم نابليون أنَّه ما جاء لاحتلال البلاد، وإنمَّا جاء من أجل الخير للشعب المصري، حيث إنَّ حكم الفرنسيين سيهيّئ للمصريّين من أمرهم رشدًا، وسوف يتيح لهم حكم بلادهم بأنفسه؛. إذ قال في منشوره إلى المصريين: «إنّ جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرّقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب.. فماذا يميّزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملّكوا مصر وحدهم ويختصّوا بكلّ شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصريّة التزامًا للمماليك، فليرونا الحجّة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم.. ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدًا ألاّ ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمّة كلها»[٢].

(ج) الدفاع عن الإسلام والمسلمين: زعم نابليون في منشوره إلى المصريّين أنَّ الفرنسيّين مسلمون مخلصون حاربوا حاكم رومية الذي كان يحثّ النصارى على محاربة الإسلام والمسلمين، إذ قال في منشوره: «إنَّ الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون؛ وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسي الحاكم الذي كان دائمًا يحثّ النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية (فرسان القديس يوحنا) الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

---

١. النص رقم ١، رسالة نابليون إلى المصريّين، ضمن كتاب: حبيدة، محمّد، أوروبا في القرن التاسع عشر بونابرته - دروس ومحاضرات (٢٠٢٠-٢٠٢١م)، ص١٠٧-١٠٨. نلاحظ ركاكة اللّغة في هذا النص، لكننا فضلنا نقله كما ورد دون تدخل من الكاتب.

٢. النص رقم ١، رسالة نابليون إلى المصريّين، م. س، ص١٠٨.

ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبّين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه»[١].

(د) **أن يعيدوا للمصريّين حضارتهم القديمة:** زعم نابليون أنَّه جاء إلى مصر من أجل أن يعيد للمصريّين حضارتهم القديمة، تلك الحضارة التي تميّزت على كافة الحضارات في كافة العصور. فعمد إلى تذكير المصريين بأنهم ينتمون إلى إقليم هو أحسن بلد في العالم، وأنهم أمّة لم تبدأ من فراغ، بل من مجد عريض، وأن أمّتهم طاولت الزمان وجودًا وصنعت الحضارات صنعًا. وأن المماليك هم الذين عصفوا بهذه الحضارة، وأنهم السبب في فقر المصريين وشقائهم، وفي هذا القول إثارة لشعور الشعب على المماليك[٢]. ولا شك في أن نابليون كان مؤمنًا بعظمة مصر إيمانًا كبيرًا. وهذا يبدو بصورة لا تقبل الشك حينما قال لضبّاطه وجنوده قبل الوصول إلى مصر: «إنَّ أوّل المدن التي سوف نجتازها شيّدها الإسكندر، سيكون لنا في كل خطوة ذكريات عظيمة، خليقة بإثارة فخر الفرنسيين»[٣].

٢- **أسباب حقيقيّة:** لا شكّ في أنّه كانت هناك أسباب حقيقيّة غير تلك الأسباب التي أعلنها نابليون -والتي لا تنطلي على عقول الأطفال- كانت وراء مجيء الحملة الفرنسيّة إلى مصر، نقف على هذه الأسباب فيما يلي:

أ. تكوين إمبراطوريّة فرنسيّة في الشرق تكون قاعدتها مصر: إنّ انتصارات نابليون في إيطاليا قد مكّنت له في الأرض، وطيّرت ذكره في الخافقين، وجعلته يطمح في انتصارات أعظم، وفتوحات أكبر؛ فاتّجهت آماله إلى الشرق موطن الفتوحات العظيمة، ولعلّ مقامه في إيطاليا موطن يوليوس قيصر، وعلى مقربة من مقدونيا موطن الإسكندر قد أوحى إليه أن يقلّد قيصر الروماني والإسكندر المقدوني في فتوحاتهما الواسعة، فاختار مصر

---

١. رسالة نابليون إلى المصريّين، م. س، ص١٠٩.

٢. الأزهر جامعة وجامعة، ج٢، م. س، ص١٦.

٣. مواريه، جوزيف ماري، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيّة على مصر، ص٢٧.

ليجعلها ميدانًا لانتصارات جديدة، واجتذبته عظمة مصر القديمة. فخُيِّل له أن يشيّد على ضفاف النيل دولة شرقيّة عظيمة تحقّق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار. وأن يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية فرنسيّة مترامية الأطراف، فيجعل من البحر المتوسط «بحيرة فرنسيّة» كما قال في مذكراته[١].

ب. قطع الطريق بين إنجلترا ومستعمراتها في الشرق: استطاعت فرنسا النصر على الحلفاء في القارة الأوروبيَّة، لكن إنجلترا التي كانت أقوى الحلفاء شكيمة وأشدّهم مراسًا بقيت بحكم موقعها الجغرافي وقوة أسطولها البحري بمأمن من ضربات نابليون وانتصاراته؛ ففكر الفرنسيون في ميدان حرب آخر يقهرون فيه إنجلترا، فوجدوا أن مصر هي أنسب ميدان؛ حيث إن احتلالها سيقطع الطريق بين إنجلترا ومستعمراتها في الشرق، ويمكّن الفرنسيين من الوصول إلى الأملاك الإنجليزيّة في الهند؛ وفي هذا أرسل نابليون إلى حكومة الإدارة خطابًا يقول فيه: «يمكننا أن نحرم إنجلترا من مزايا سيادتها في الأقيانوس الأعظم، فإذا كانت تنازعتنا طريق رأس الرجاء الصالح في مفاوضات «ليل»، فلنتجاوز عنه ولنحتلّ مصر، فسيكون لنا فيها الطريق المفضي إلى الهند، ويسهل علينا أن ننشئ بها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم، وإذا أردنا أن نهاجم إنجلترا فلنهاجمها في مصر»[٢].

ت. شق قناة بحرّيّة تصل البحرين الأبيض والأحمر: رأى نابليون أن طبيعة موقع مصر الجغرافي جعلها مركز الاتصال بين الشرق والغرب، وملتقى المتاجر التي تتبادلها القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا، وأنه بإنشاء قناة تصل مياه البحر الأحمر بالبحر الأبيض يمكن للسفن الفرنسيّة أن تصل إلى البحر الأحمر وتهاجم أملاك الإنجليز في الهند. وكان هذا مشروعًا قد بدأه السان سيمونيون الذين رأوا فيه «ضرورة دينيّة للربط

١. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، م. س، ص٧٣.

٢. م. ن.

بين القارات»[١]. وعلى كلّ حال تستطيع فرنسا أن تنشئ في مصر مستعمرة ترسل إليها متاجرها ومصنوعاتها وتتحول إليها تجارة الهند والشرق وتكون طريقًا لها إلى أوروبا بدلًا من طريق رأس الرجاء الصالح، فتصبح مصر مستودعًا لمتاجر العالم وتعوض فرنسا عما فقدته من المستعمرات، وتكون في الوقت نفسه قاعدة لضرب إنجلترا في الهند وبسط سيادة فرنسا في البحر المتوسط[٢].

ث. الاتّجاه نحو السياسة الاستعماريّة: ويعدّ هذا السبب من أهمّ الأسباب التي جاءت من أجلها الحملة إلى مصر؛ حيث إنّ الكثير من الساسة والمفكّرين الفرنسيّين رأوا أن تتّجه فرنسا إلى السياسة الاستعماريّة ولا تترك المجال مفتوحًا على مصراعيه أمام السياسة الاستعماريّة الإنجليزيّة لتجتاح العالم وتسيطر على خيراته وحدها. وكان المسيو «تالليران»، وزير الخارجية الفرنسي آنذاك، والمسيو «مجالون»، القنصل العام، من أبرز هؤلاء المشجّعين على سلوك هذا الاتجاه؛ حيث كانا يعتقدان أن علاج العنف الموجود في المجتمع الفرنسي لا يكون إلّا بفتح ميادين أخرى لكي يصرف فيها الشباب الفرنسي حماسهم ونشاطهم الذي بعثته الثورة في نفوسهم ولم يجدوا سبيلًا لتنفيسه، فإن ممارسة السياسة الاستعماريّة إلى جانب أنه سيعود بالخيرات السياسيّة والاقتصاديّة على فرنسا سيخفّف من حوادث العنف التي كانت تعاني منها فرنسا[٣]. كما رأى كلّ منهما أن احتلال مصر سيعوّض فرنسا عن مستعمراتها قبل الثورة في (الهند وكندا)، وأن وادي النيل سيكون خير تعويض عما فقدته فرنسا خاصة لحاصلاته الاقتصاديّة المتنوّعة وموقعه التجاري والاستراتيجي المهم[٤].

ج. **القضاء على اليقظة الإسلاميّة في الشرق:** عمل المستشرقون الفرنسيّون وعلى رأسهم «المسيو مجالون» الذي أقام في مصر نيّفًا وثلاثين سنة، وعيّنته حكومة الإدارة

١. عبد العزيز، زينب، مئتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين، ص١٤.

٢. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ج١، ص٨٠.

٣. إبراهيم، عبد الله عبد الرازق، شوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان الحديث المعاصر، ص٧٣.

٤. م. س، ص٧٣.

قنصلاً عامًّا لفرنسا في مصر سنة ١٧٩٣م[١]، على لفت نظر «المسيحيّة الشمالية» إلى خطر «اليقظة الإسلاميّة» في مصر، محدّدًا إيّاها محذّرًا من سوء عواقبها، تلك اليقظة التي تمثّلت في يقظة اللّغة على يد الشيخين الكبيرين البغدادي والزبيدي وتلامذتهما، ويقظة «علوم الحضارة» على يد الشيخ الجبرتي وتلاميذه[٢]. مرتئيًا أنها «يقظة» تنطلق من أقدم بيتين من بيوت العلم والعبادة على ظهر الأرض المصريّة، هما الجامع العتيق بالفسطاط والجامع الأزهر بالقاهرة. فاليقظة التي تأتي من قِبلهما سوف تؤدّي إلى يقظة دار الإسلام كلها، بما فيها اليقظة المتفجّرة المتحركة الجديدة في جزيرة العرب: فإذا تمّ اندماج اليقظتين فلا يعلم إلّا الله كيف يكون المصير؟[٣]. ومن ثم كان من أهم أهداف الحملة القضاء على تلك اليقظة التي إذا استمرت ستمثّل خطرًا كبيراً على العالم الغربي، وهو الأمر الذي تحرص عليه كافة القوى الكبرى في العالم إلى يومنا هذا.

ح. سرقة ثروات مصر الاقتصاديّة وكنوز الشرق العلميّة: نظر الفرنسيّون إلى مصر على أنها البقرة الحلوب التي لا يتوقّف درّها، فكان من أهم أهداف الحملة استنزاف خيراتها بكل الوسائل، وإثقال كاهل الشعب بالضرائب الباهظة التي فرضوها عليه، بما لم يكن معهودًا من المماليك الذين ادعى نابليون أنه جاء ليخلّص المصريين من استغلالهم[٤]. وهو الأمر الذي أكّده عبد الرحمن الرافعي في حديثه عن أحوال مصر الاقتصاديّة والمالية في عهد الحملة الفرنسيّة، فيقول: «أمّا الحالة الماليّة والاقتصاديّة، فقد ساءت عما كانت عليه قبل الحملة الفرنسيّة. فإنّ توالي الضرائب والغرامات والمصادرات والنهب والتخريب والإحراق والتدمير قد أتلف الزراعة والتجارة والصناعة، وأفقر البلاد وزادها ضنكًا على ضنك»[٥]. ويخبرنا الجبرتي بحال مصر بعد مجيء الحملة الفرنسيّة

---

١. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ج١، ص٧٩.

٢. الوصيف، فرج محمّد، مصر بين حملتي لويس ونابليون، المنصورة، ص٤٣- ٤٤.

٣. م. ن، ص٤٤.

٤. م. ن، ص٦٣.

٥. الرافعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج٢، ص١١٩.

فيقول: «إنه بداية اختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير وعموم الخراب»[١]. كما تحدّث الجبرتي عن نية الفرنسيين المبيَّتة لسرقة نفائسنا العلميّة وأخذ ما وجدوه إلى بلادهم. فقد سرقوا كل نفيس من الكتب، وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب. ودليل السرقة قائم بين أعيننا إلى هذا اليوم، يصيح شاهدًا على نفسه بالسطو على ذخائرنا التي يمنّون علينا بعد ذلك، في حياتنا الأدبية الفاسدة، أنهم حفظوها لنا، ونشروا لنا نفائسها. دليل السرقة قائم في جميع مكتبات أوروبا، صغيرها وكبيرها، في فرنسا وإنجلترا وهولندا وروسيا وغيرها من البلدان، وفي الأديرة والكنائس، وفي جميع أرجاء العالم المتحضّر! وكان همّهم الأكبر يومئذ هو السطو على كتب «علوم «الحضارة» أوّلًا، ثمّ على كتب «التاريخ» ثمّ على كتب «الآداب» كلها بلا تمييز[٢]. هذا فضلًا عن تخريبهم الأزهر ودخوله بخيولهم والتنكيل بعلماء الأمة، وقتل أبناء الشعب بوحشيّة لا مثيل لها، والعمل على تربية جيل من بني جلدتنا يقوم بدور الفرنسيين في بلاد الإسلام، وتفتيت الوحدة الوطنيّة، والقضاء على المظاهر العمرانية الجميلة في القاهرة، والسعي لنشر البدع والمنكرات، ونشر السفور والخلاعة والمجون في المجتمع المصري لضمان عدم نهضته وقيامه من كبوَته[٣].

ثالثًا- الوقائع الميدانية للحملة الفرنسيّة

استطاع نابليون بونابرت أن يقنع حكومة الإدارة بغزو مصر، ومن ثم قررت الحكومة في ٥ مارس ١٧٩٨م إنفاذ الحملة، وعندما تمّت الاستعدادات أصدرت قرارها في ١٢ أبريل ١٧٩٨م بتسمية الجيش الذي سيتولّى التنفيذ بـ«جيش الشرق» وأسندت قيادته إلى الجنرال بونابرت[٤] الذي توجّه في ١٤ مايو سنة ١٧٩٨م ناحية مصر في سرّية تامّة حتى

١. الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، ص١.

٢. مصر بين حملتي لويس ونابليون، م. س ص٤٨-٤٩.

٣. انظر: م. ن، ص٤٣-٨٤.

٤. الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١م)، م. س، ص٦٨.

لا يتسرّب خبره إلى الحكومة الإنجليزيّة، حتى أنّ الجنود الذين ركبوا من ميناء طولون لم يكونوا يعرفون الجهة التي يقصدونها[١]. وفي هذا الصدد يقول أحد ضبّاط الحملة: «وسرعان ما اتخذ قبطان كل سفينة موضعه وأبحر. وقد خيّبت الطرق التي سلكناها كافة تكهّنات بحّارتنا، وغُيّبت عنهم الغاية التي نستهدفها. فإذا سرنا بمحاذاة الشاطئ قالوا إنها جنوة. وإذا نأينا عنه فالذهاب إلى سردينيا. هكذا راحت المزاعم تختلف في كل لحظة»[٢]. وقد ظلّ الأمر مجهولاً بالنسبة للجنود حتى ألقى نابليون بيانه الثاني من على متن السفينة « أوريون» في ٢ يوليو ١٧٩٨م[٣]. أي قبل وصولهم الإسكندريّة بساعات قليلة، وسوف نرصد فيما يلي لأهم الوقائع الميدانيّة التي تعرضت لها الحملة الفرنسيّة في مصر.

١. سقوط الإسكندريّة والقاهرة

تمكّنت الحملة من إنزال جنودها على شواطئ الإسكندريّة ودخول المدينة في ٣ يوليه؛ حيث فوجئ الحكام المماليك الذين لم يأبهوا بتحذيرات الإنجليز قبل ذلك بأيّام وظنّوا أنها مكيدة وجاوبوهم بكلام خشن[٤]. وقد حاولت بعض القوى المملوكيّة التصدّي للقوّات الغازية، لكنهم باؤوا بالهزيمة؛ حيث كانت قوتهم قد استُهلكت في النزاعات الداخلية فيما بينهم، ولم يوجّهوا اهتماماتهم إلى تحصين البلاد وحفظ ثغورها لمواجهة أي أخطار محتملة. وهنا قام أهالي الإسكندريّة بزعامة السيِّد محمّد كريم حاكم المدينة بمواجهة قوات الغزو، لكنهم فشلوا في الدفاع عن مدينتهم وسيطر الفرنسيّون على الإسكندريّة واعتقلوا حاكمها الذين أعدموه رميًا بالرصاص فيما بعد. ثم واصل الفرنسيون زحفهم نحو رشيد، كما يقول الجبرتي: «وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم فذهبوا إلى فوه ونواحيها، والبعض طلب الأمان وأقام ببلده، وهم العقلاء، وقد

١. سولية، روبير، مصر ولع فرنسي، ص٣٣.

٢. مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيّة على مصر، م. س، ص٢٢.

٣. م. ن، ص٢٦.

٤. عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، م. س، ص١.

كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندريّة كتبوا مرسومًا وأرسلوا منه نسخًا إلى البلاد التي يقدمون عليها تطمينًا لهم»[١] . ومع ذلك قاتل المصريون في دمنهور قتالاً شديدًا تحت قيادة القائد المملوكي مراد بك عند شبراخيت والرحمانية في ١٣ يوليو سنة ١٧٩٨م. غير أنّ بونابرت استطاع هزيمته؛ ممّا جعله يتقهقر بجنوده إلى القاهرة استعدادًا لمعركة فاصلة، فالتقى الجيشان عند «إمبابة» وهناك على مقربة من «الأهرام» هُزِمَ جيش مراد بك في معركة فاصلة، كان فيها القضاء على قوّة البلاد الحربيّة وهي المعركة المعروفة عند المصريّين بواقعة «إمبابة» وعند الفرنسيّين بواقعة الأهرام[٢] . أمّا القائد المملوكي الآخر إبراهيم بك، والذي كان مرابطًا بالبر الشرقي للنيل، فإنه فور سماعه بالهزيمة التي حلت بمراد، غادر القاهرة ومعه مماليكه وأتباعه، وأعداد من المصريّين، مصطحبين معهم الوالي العثماني «أبو بكر باشا» متجهين صوب بلبيس في اتجاه الصحراء الشرقية، مما جعل القاهرة خالية من أيّة قوّة دفاع أمام الغزاة[٣] . فدخل الغزاة القاهرة في ٢٤ يوليو ١٧٩٨م، وأرسل بونابرت الجنرال «ديزيه» لمطاردة مراد بك في الصعيد، كما أرسل الجنرال «رينيه» لمطاردة إبراهيم بك في الشرقيّة.

٢. المقاومة في الصعيد

على الرغم من الوعود التي بذلها نابليون للمصريّين في بداية دخوله القاهرة وتطمينه لهم بأنه ما جاء لقتالهم وإنما جاء لتحريرهم من المماليك وإشراكهم في حكم بلادهم، وبناء على ذلك أظهر احترامًا مبالغًا فيه لعلماء الأزهر وحاول استمالتهم بكل الطرق، إلاّ أنّ ذلك لم ينطل عليهم وارتابوا في احترامه لدينهم وصداقته للسلطان. وبعد أن سيطر نابليون على القاهرة والوجه البحري اعتزم على إخضاع الوجه القبلي؛ إذ رأى أن بقاء قوّة معادية في الصعيد يهدّد سلطة الحكومة المركزيّة، ويكون مثابة للمقاومة الأهليّة، ويعطل

١. عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ص٤.

٢. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، م. س، ص٨٦.

٣. الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١م)، م. س، ص٧٤.

الملاحة في النيل، ويحبس الغلال عن الوجه البحري فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة. ومن ثم قرر نابليون احتلال الصعيد بعدما فشلت مفاوضاته مع مراد بك على أن يترك له مديرية جرجا وما يليها إلى الشلال، ويكون تابعًا للحكومة الفرنسيّة فيؤدّي الخراج الذي كان يخرج من هذه الجهات[١]. وهذه المفاوضات في حدّ ذاتها أبلغ دليل على كذب نابليون في أنه جاء ليخلّص المصريّين من ظلم المماليك. وأن كل ما كان يهمه هو إخضاع مصر وجعلها مستعمرة فرنسيّة. ومن ثمّ تفجرت المقاومة في الصعيد بصورة أقوى من الوجه البحري؛ لوجود اتصالات بين أهالي الصعيد وبين البقية الباقية من جيش المماليك. كما زاد من قوّة المقاومة في الصعيد توافد مجموعات جاءت للمساعدة من شبه الجزيرة العربيّة عبر البحر الأحمر وانضمّت للمقاومة. كما كان طول الوادي جنوبًا وبُعد الصعيد عن مركز الحكم من أهم الأسباب التي أرهقت الفرنسيّين في السيطرة على المقاومة في الصعيد.

٣. ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨م)

على الرغم من أنّ منشور نابليون إلى المصريّين قد حوى من الوعود والعبارات الجميلة؛ فقد حوى كذلك تهديدًا ووعيدًا وإنذارًا للمصريّين في مادّته الثانية: «كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار»[٢]. وعندها أدرك المصريون أنه من الحماقة الاطمئنان لوعود نابليون. وخلال معارك القوات الفرنسيّة لإخضاع الصعيد اندلعت ثورة في القاهرة ضدّ الحكم الفرنسي، كان أهمّ أسبابها: فرض ضرائب باهظة على التجّار خلافًا لما وعد به نابليون بأنه جاء لإنصاف المصريين من ظلم المماليك، وتفتيش البيوت واقتحام الدكاكين بحثًا عن الأموال، وهدم أبواب الحارات حتى يسهل مطاردة عناصر المقاومة، وهدم كثير من المساجد والمباني والآثار بحجّة تحصين القاهرة، مما أظهر وجه المحتل الفرنسي على حقيقته[٣]. وقاد الأزهر الثورة، ونظّم قبول المتطوّعين بأسلحتهم،

---

١. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، م. س، ص٣٣٧.

٢. النص رقم ١، رسالة نابليون إلى المصريّين، م. س، ص١١٠.

٣. انظر: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ج١، ص٢٦٠-٢٦٩.

وكانت المقاومة شديدة حتى لقد قُتل حاكم مدينة القاهرة الفرنسي القومندان ديبوي **(Dupuy)** ومعه نحو مئتين، وقُتل من المصريين نحو ألفين. وقد أخمدت الثورة بالقمع والإرهاب الشديد حيث دخلت القوات الفرنسيّة الجامع الأزهر بالخيول؛ حيث تحصن به حوالي ١٥ ألفًا من أشد الثوار حماسة، فهاجم الفرنسيون المسجد وحطموا أبوابه وقتلوا معظم الثوار بنار البنادق والمدافع[١]، ودنّسوا المسجد وطرحوا المصاحف على الأرض وداسوها بأرجلهم ونعالهم، وكسروا أوانيه ودمّروا زينته، ومزّقوا المخطوطات ونهبوا الكتب[٢]. فأهاج هذا التصرّف الشعور الديني لدى المصريين، وامتدّت ثورة القاهرة إلى الأقاليم المجاورة، حيث اشترك أهاليها بالرجال والعتاد عندما وصلتهم رسائل من قيادة الثورة. مما عرضهم للقهر والتنكيل والذبح وقطع الرؤوس، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتلقّى في النيل. وقد أسرف الفرنسيون في القتل، حتى أنهم فقدوا الرحمة بالنساء، فقتلوا كثيراً منهن، وهذا أفظع ما سُمع في التنكيل وسفك الدماء[٣]. حتى تم اخماد الثورة لكنها بقيت مشتعلة في قلوب المصريّين وضمائرهم.

٤. موقعة أبي قير البحريّة (أوّل أغسطس ١٧٩٨م)

بعد إنزال الجنود الفرنسيين قرب الإسكندريّة أصرَّ نابليون على أن يبقى الأسطول الفرنسي في الشواطئ المصريّة، فاضطر قائد الأسطول الجنرال برويس **(Brueys)** إلى أن يبحر بأسطوله إلى خليج أبي قير، اعتقادًا منه أن الخليج سيكفل لسفنه مكانًا آمنًا أكثر من ميناء الإسكندريّة. وهنا عاد نلسون قائد الأسطول الإنجليزي إلى الإسكندريّة وحاصر الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير ونجح في القضاء عليه، فلم يترك منه سوى أربع سفن[٤]. وترتب على هذا فرض الحصار البحري على الحملة في مصر؛ فانقطع الاتصال بين الحملة في مصر وبين فرنسا ممّا اضطر الفرنسيّين على أن يعتمدوا بشكل كلي على

١. انظر: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ص٢٧٥.

٢. كشك، محمّد جلال، ودخلت الخيول الازهر، ص١٥.

٣. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ج١، ص٢٨٤.

٤. إبراهيم، عبد الله عبد الرازق؛ الجمل، شوقي، تاريخ مصر والسودان المعاصر، ص٨٤.

الموارد المصريّة، فازدادت الضرائب على المصريين، كما أحدثت هذه الموقعة تقاربًا بين السلطان العثماني والإنجليز، وقد كان هذا التقارب سببًا مهمًّا من الأسباب التي أدت إلى الضغط على الحملة الفرنسيّة للخروج من مصر كما سنرى فيما بعد.

٥. ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس - ٢١ أبريل ١٨٠٠م)

لم يستسلم المصريّون ولم تهن عزائمهم بعد السيطرة على الثورة الأولى؛ بل استغلّوا الظروف الخارجيّة للثورة مرة أخرى؛ حيث عقدت الدولة العثمانيَّة معاهدة مع إنجلترا وروسيا للاشتراك معًا في إخراج الفرنسيّين من مصر بالقوة العسكرية بواسطة حملتين، واحدة من جهة الشام والأخرى من جهة الإسكندريّة؛ لذلك أرسل نابليون قواته إلى الشام ليستولي على عكّا، لكنه فشل لقوّة تحصينها، ولاستبسال قائدها في الدفاع عنها خاصة بعد الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون في يافا والتي يشيب من هولها الولدان؛ لعلّ أفظعها قتل نابليون لثلاثة آلاف مقاتل من حامية يافا آثروا التسليم مقابل حفظ أرواحهم، لكن نابليون تنكّر لوعده بحجّة أنَّه كان عاجزًا عن إطعامهم وحراستهم في بلاد نائية لم يستتبّ له فيها الأمر، وهي حجّة واهية تنطوي على نقض العهود وتنكّر للمبادئ الإنسانية وقواعد الحروب[١]. كما بلغت بونابرت تلك المتاعب التي تواجهها حكومة الإدارة في فرنسا مع النمسا وحلفائها، فقرر العودة سرًا إلى فرنسا وترك قيادة الحملة لنائبه كليبر في ١٨/ ٨/ ١٧٩٩م، وفي تلك الأثناء أرسلت الدولة العثمانيَّة حملة أخرى إلى العريش ودمياط، وعاد المماليك للمقاومة مرة أخرى، وتجدّدت الثورة في الشرقية وامتدت إلى وسط الدلتا وغربها. وعندئذ أدرك كليبر أن من مصلحة الحملة مغادرة مصر على أن يخرج بجنوده إلى فرنسا على نفقة الدولة العثمانيَّة، وقد اتفق على ذلك فعلاً في معاهدة عُرفت بمعاهدة العريش يناير ١٨٠٠م، لكن إنجلترا اعترضت وطلبت أن يسلّم الفرنسيون أسلحتهم ويسلّموا أنفسهم كأسرى حرب، وألاّ يُسمح لهم بالذهاب إلى فرنسا[٢]. هنا رفض

---

١. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ج٢، ص٣٨.

٢. م.ن، ص١٤٣.

كليبر ونقض اتفاق العريش؛ فتأجّجت الثورة واندلعت نيرانها في ٢٠ مارس ١٨٠٠م في نفوس المصريّين وهاجموا معسكر الفرنسيّين بكل قوّة وبسالة، لكن كان كليبر دمويًا أكثر من سابقه فضرب القاهرة، فاحترقت أحياء برمّتها، وتهدّمت بيوت عامرة، ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها [١]. وقتل خيرة شباب مصر ورجالها، ولم يرحم كليبر وجنوده كبيراً ولا صغيراً، حتى أُخمدت الثورة. ووقع على المصريين غرامات فادحة واعتقال واضطهاد لم يسبق له مثيل، حتى تم اغتيال كليبر على يد شاب سوري كان يدرس في الأزهر يدعى سليمان الحلبي في ١٤ يونيو ١٨٠٠م [٢]، وقد عُذِّب أثناء إعدامه تعذيبًا شديدًا برفقة أربعة من أصدقائه، وتمّ إغلاق الجامع الأزهر.

٦. جلاء الحملة عن مصر

لم تهدأ الأوضاع في مصر داخليًّا أو خارجيًّا، ولكن كانت أشبه بالنار تحت الرماد؛ إذ لم تتوقّف إنجلترا عن فكرة إخراج الفرنسيّين من مصر، فأرسلت أسطولاً جديدًا إلى أبي قير (فبراير ١٨٠١م) اشتبك مع الجيش الفرنسي واستطاع هزيمته في معركة كانوب (٢١ مارس سنة ١٨٠١م) [٣] ثم هزمه مرة أخرى في معركة الرحمانية (٩ مايو ١٨٠١) [٤] متحالفًا مع الجيش العثماني. ثم استطاع الجيش العثماني القادم من سوريا بقيادة الصدر الأعظم «يوسف باشا ضيا» أن يلحق الهزيمة لأول مرة بالجيش الفرنسي الذي كان يقوده الجنرال بليار في معركة الزوامل (١٦ مايو ١٨٠١) [٥].

كما كان انتشار الطاعون بين جنود الحملة من أهم الأسباب التي أضعفت موقف الحملة الفرنسيّة في مصر، والذي تسبّب في موت أهم حلفاء الفرنسيّين القائد المملوكي

---

١. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ص١٧٣.

٢. م. ن، ج١، ص١٨٥.

٣. م. ن، ج٢، ص٢٢٩.

٤. م. ن، ص٢٣٦.

٥. م. ن، ص٢٣٩.

مراد بك؛ الذي رأى الجبرتي أنَّه كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري بما تجدّد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهوّر، فلعلّ الهمّ يزول بزواله[١]. وقال عنه عبد الرحمن الرافعي: «كانت وفاته ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيّين؛ لأنهم فقدوا بموته حليفًا قويًا كان يمكن أن يمدّهم بما لديه من حول وقوة، وحزنوا عليه حزنًا شديدًا»[٢]. كذلك كان انضمام أهل القاهرة إلى المقاومة وتحفّزهم للانقضاض على الجيش الفرنسي في أيّ مكان وفي أيّ وقت من أهمّ الأسباب التي ساعدت في اقتناع الفرنسيين بأن مصر لم تعد صالحة للبقاء فيها.

وبينما كان الجيش الإنجليزي العثماني يتأهّب للهجوم على مواقع الفرنسيين في القاهرة هجومًا عامًا، جاء مندوب من قبل الجنرال بليار إلى المعسكر الإنجليزي في يوم ٢٢ يونيو ١٨٠١م يطلب وقف القتال وفتح باب المفاوضة على قاعدة الجلاء، فقبل الجنرال الإنجليزي هتشنسون والصدر الأعظم هذا الطلب بارتياح[٣].

وبعد مفاوضات استمرت لأربع أيام انتهت باتفاق جلاء الجيش الفرنسي عن مصر، ووقّع المندوبون على هذا الاتفاق، وتقتضي شروطه أن تجلى القوات الفرنسيّة عن مصر جلاء تامًا على أن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم على نفقة الحلفاء[٤]. وهو الاتفاق الذي رفضه الإنجليز من قبل في معاهدة العريش وقبلوه كما هو بعد أن سفكت الدماء وخربت البلاد وعمَّ البلاء؛ لأن المستعمر لا يهمّه إلّا مصلحته هو فقط، ولا يهتم أدنى اهتمام بمصير الشعوب المستعمَرة.

أمَّا الجدير بالذكر في حادث الجلاء أنَّه لما بدأ الفرنسيّون يوم ٢ سبتمبر ١٨٠١م يسلمون قلاع مدينة الإسكندريّة واستحكاماتها ومدافعها والسفن الحربية التي كانت لهم في الثغر، جاء دور تسليم مقتنيات أعضاء المجلس العلمي، فاحتج أعضاء لجنة العلوم

---

١. عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ج٣، ص٢٧٣.

٢. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ج٢، ص٢٤٠.

٣. م. ن، ص٢٤٥.

٤. م. ن، ص٢٤٦.

والفنون على حرمانهم من ثمرة أبحاثهم وجهودهم واكتشافاتهم، وأوفدوا ثلاثة منهم لإقناع الجنرال هتشنسون بعدوله عن هذا الشرط، ولكن الجنرال الإنجليزي رفض طلبهم في البداية، فأجمعوا رأيهم على الامتناع عن تسليم تلك الكنوز العلميّة، وأنذروا القائد الإنجليزي بإحراقها بدلاً من التفريط فيها أو تسليمها، وأبلغوه أنهم يلقون على عاتقه تبعة حرمان العلم من هذه النفائس في حالة إصراره على طلبه، فبهت القائد الإنجليزي أمام هذا التهديد، وقبل مكرها أن يتنازل عن نفاذ هذا الشرط، وترك لهم مقتنياتهم، بيد أنه منعهم من أخذ الآثار النفيسة والمقتنيات الفرعونية التي أرادوا تهريبها معهم، وحجزها بحجّة أنها ملك مصر، لكن مصر حُرمت منها وسرقها الإنجليز إلى بلادهم وزانوا بها متاحفهم، ومن هذه الآثار (حجر رشيد) المشهور الموجود إلى اليوم في المتحف البريطاني بلندن[1]. وهذا هو دأب المستعمر دائمًا السرقة والنهب والكذب والمراوغة والاستيلاء على خيرات وثروات الشعوب المستعمَرة. وغادر الفرنسيون مصر وعم البلاد فرح عارم بجلائهم وكان آخر من أبحر منهم الجنرال (مينو) خليفة كليبر، وكان ذلك في يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١م[2].

وأبلغ ما يمكننا الوقوف عليه من دراسة الوقائع الميدانيّة هو ذلك الموقف البطولي للمقاومة المصريّة؛ حيث أبدى أبناء مصر في القاهرة والوجهين القبلي والبحري ضروبًا من البسالة في مقاومة المحتلّ الغازي وعدم الانخداع بوعوده البرّاقة الزائفة، وبذل الأنفس رخيصة من أجل تحرير الأرض والوطن، فأظهروا صورًا من البطولة والتضحية أبهرت المحتلّين أنفسهم، وذلك بصور وأشكال يصعب حصرها.

رابعًا- النتائج والآثار المترتّبة على الحملة الفرنسيّة

بقي الفرنسيون في مصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تقريبًا (من يوليو ١٧٩٨ حتى سبتمبر ١٨٠١م) تولّى أمرهم خلالها نابليون وكليبر ثم مينو، ولم يتهيّأ لهم في أثناء

---

١. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ص٢٥٤-٢٥٥.

٢. م. ن، ص٢٥٥.

إقامتهم القصيرة بالبلاد الاستقرار اللازم لتحقيق أهدافهم الاستراتيجية، وإنما قضوها في حالة حرب ومعارك مستمرّة[1]. ومع ذلك لا يمكننا أن نتجاهل الآثار العميقة التي تركتها الحملة في مصر؛ إذ إنّ هذه الآثار شملت الجوانب السياسيّة، والاجتماعيّة والمجالات الاقتصاديّة سواء في مجال الزراعة والصناعة والتجارة، فضلاً عن تلك الآثار الفكريّة والعلميّة. وسوف نعرض لهذه الآثار فيما يلي فيما يتناسب مع نطاق بحثنا.

١. الآثار السياسيّة - دواوين الحكم: كان من أهم الآثار السياسيّة التي أحدثها الفرنسيّون فكرة دواوين الحكم لتنظيم أمور الإدارة والحكم في مصر على نمط ما حدث في فرنسا بعد الثورة من حيث نقل السلطة إلى الطبقة الوسطى وهم الأعيان في مصر، ولكنه كان نقلاً شكليًّا دون أن تكون هناك فرصة حقيقيّة للممارسة الفعليّة؛ إذ كان غرض بونابرت في النهاية التعرف على ما يدور في أذهان صفوة المصريّين؛ فأنشأ ديوان القاهرة للتداول في أحوال العاصمة، ودواوين الأقاليم للنظر في المصالح والشكاوي وجباية الأموال والضرائب المقرّرة على الأهالي. والديوان العام الذي يفترض فيه أن يمثّل السلطة التشريعيّة في البلاد، وهو يتشكّل من ديوان القاهرة والمديريّات بغرض تدريب النخب المصريّة على نظام مجالس الشورى. لكن من يتتبّع نشاط هذه الدواوين ودورها يدرك أن القصد من تشكيلها لم يكن تدريب المصريّين على الحكم الذاتي -كما تدّعي بعض الكتابات-؛ ذلك أن السلطة الفعليّة كانت في أيدي الفرنسيين إلى أقصى حدّ، بحيث اتّضح أنّ إنشاء هذه الدواوين كان بهدف الاستعانة بأعضائها من علماء ومشايخ الأزهر اعتماداً على مكانتهم في إخضاع البلاد وتهدئتها، والاستماع إلى مشوراتهم دون الالتزام بها، وتوفير وسيلة محلّيّة للربط بين الحكّام والمحكومين. وعلى الرغم من أنّ الهدف الأساسيّ من تشكيل هذه الدواوين هو خدمة مصالح المستعمرين، فإنّها أطلعت المصريّين حقيقةً على نماذج جديدة للهيئات السياسيّة والمجالس الشورية وإن لم تكن لها سلطة حقيقيّة[2].

---

١. الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١م)، م. س، ص١١٢.

٢. م.ن، ص١١٥.

٢. الآثار الاجتماعيّة: كثيراً ما يُخيّل للباحث في تاريخ الحملة الفرنسيّة على مصر أنّها خلَت من الآثار الاجتماعيّة، رغم أن آثارها الاجتماعيّة كانت خطيرة للغاية؛ إذ نقلت الحملة الفرنسيّة إلى مصر أنواعًا وصنوفًا شتّى من أنواع وأصناف الفساد الاجتماعي، حيث أتت إليها بالخمّارات، وألعاب القمار، والبيوت المشبوهة، وفتيات الليل، وإباحة بيع الخمر. فعملت -بصورة مباشرة- على تغيير العادات والقيم الاجتماعيّة[١]. فقد انتشرت مظاهر الانحلال الأخلاقي بما يشمله من إباحية وفوضى أخلاقية لا تتمشّى مع التقاليد الإسلاميّة فيما حرص عليه الضباط الفرنسيون منذ دخولهم القاهرة؛ إذ اصطحبوا عشيقاتهم إلى مصر. كما شجّعت القيادة العامّة للجيش الفرنسي السيدات الأوروبيّات في القاهرة على حضور الحفلات الساهرة التي كان الفرنسيّون يقيمونها في دورهم أوّلًا، ثمّ في نادي تيفولي ثانيًا، كما لجأت قيادة الجيش إلى الاتفاق مع المغنيات والراقصات المصريات المحترفات «العوالم» كي يشتركن في إحياء الحفلات التي كانت تُقام في هذا النادي، وكانت تمارس في هذه الحفلات على نطاق واسع أمور تتنافى مع الآداب العامة. وانتشرت المراقص في شتى أنحاء القاهرة وفُتحت محال الدعارة بكثرة، وأقبل الجنود الفرنسيّون عليها إقبالاً شديدًا[٢]. وفي ذلك يقول «نقولا الترك» المؤرّخ اللبناني الذي عاصر الحملة هو الآخر وحضر إلى مصر لمتابعتها وسجّل ما شاهد، فقد قال: «وخرجت النساء خروجًا شنيعًا مع الفرنساويّة، وبقيت مدينة مصر (يعني القاهرة) مثل باريس، وفي شرب الخمر والمسكرات، والأشياء التي لا ترضي ربّ السماوات»[٣].

٣. الآثار في مجال الزراعة: قام علماء الحملة بدراسة مجرى نهر النيل وفحص القنوات والجسور، وتمّ تخصيص جزء من الأراضي الزراعيّة العامّة لإنتاج الغلّات التي تحتاجها فرنسا، وكان من أهم المحاصيل التي حرصت فرنسا على زراعتها في مصر ومن أجلها قامت بتعديلات جوهريّة في نظام الري: القمح، والحبوب، والأرز، وقصب

١. مئتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين، م. س، ص٢٢.

٢. الأزهر جامعة وجامعة، ج٢، م. س، ص٦٠-٦١.

٣. الوافي، محمّد عبد الكريم، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسيّة على مصر، ص٢١٩.

السكر، والكتّان، والنيلة، ومختلف الفواكه التي كانت تشتهر بها مصر، كما جلبوا أنواعًا من الفواكه التي لم تكن موجودة في مصر من فرنسا مثل: الخوخ، والمشمش، والكمّثرى، والتفاح. وكان الغرض الأول من هذه الإصلاحات هو مصلحة الفرنسيين وإمدادهم بكل ما يحتاجونه من الحبوب، والفواكه، والمواد اللازمة للصناعة. ومن ثم كان على الفرنسيين أن يعملوا على تنمية الزراعة بكل الطرق فقضوا على نظام الالتزام، وأدخلوا نظمًا جديدة للري، وزراعات جديدة[١].

٤. **الآثار في مجال الصناعة:** عمل الفرنسيّون على الاستفادة من كافة الصناعات البسيطة، كما عملوا على الاستفادة من الحرفيين المصريين المهرة والذين تميّزت بهم مصر دون إفادتهم بأسرار الصناعة الفرنسيّة. فأصلحوا دار الصناعة (الترسانة) لتصنع المدافع والسفن والآلات الحربية التي كان مراد بك قد أنشأها بالجيزة. وأنشأ مينو مصنعًا للنسيج، وحرص على ألا يضمّ هذا المصنع عمّالًا مصريّين حتى لا تتسرّب أسرار الصناعة إليهم. وكانت القاعدة أن يستقدم عمّالًا من فرنسا، وقد حدث ذلك بالنسبة للنسيج والحدادة وصناعة الساعات والدباغة وصناعة حروف الطباعة والجوخ والبيرة[٢]. فعن أي فائدة يتحدّث المستعمر غير استفادته هو؟! إذ كان همّ المستعمر الأوّل هو تعويض المصنوعات الأوروبيَّة التي فقدوا وسائل الاتصال بها.

٥. **الآثار في مجال التجارة:** اهتم الفرنسيون بإحياء التجارة التي ركدت بسبب حصار الإنجليز للشواطئ المصريّة ووجود الجيش العثماني في بلاد الشام، ومن ثمَّ عمل الفرنسيون على افتتاح أسواق جديدة لمصر في بلاد البحر الأحمر؛ فسارت المراكب بما نهبه الفرنسيون من خيرات مصر بين جدة وينبع والسويس، محملة بالأنسجة القطنية والشيلان الصوفية والحرائر وكافة ما يمكن بيعه أو شراؤه. وكان نابليون أوّل من بدأ سياسة التفاهم مع شريف مكة. وكان ضمن برنامج «مينو» إجراء علاقات مع سنار ودارفور في السودان، وبلاد الحبشة، وبلدان شمال أفريقيا[٣].

---

١. تاريخ مصر والسودان المعاصر، م. س، ص٨٩.

٢. الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١م)، م. س، ص٨٨.

٣. الحضارة الإسلاميّة وتاريخ العرب الحديث، م. س، ص٨٦.

٦. الآثار الفكريّة والعلميّة: وهي أبرز مؤثرات الحملة الفرنسيّة؛ إذ كان مع الحملة طائفة من علماء فرنسا النابغين في مختلف فروع علوم العصر، وطائفة من رجال الفنون من المصوّرين والرسّامين والموسيقيّين والمثّالين، بلغوا جميعًا نحو ١٤٦ عالمًا، فأسّس نابليون بواسطة هؤلاء النخبة «المجمع العلمي المصري» الذي لم تكن مهمّته يومًا تعليم المصريّين وتثقيفهم، بل كانت مهمّته الأولى هي الكشف عن إمكانيّات مصر الطبيعيَّة والصناعيَّة بما يخدم أهداف الحملة في تأسيس مستعمرة على أساس علمي[١].

وهكذا عكست آثار الحملة الفرنسيّة الأهداف الاستعماريّة بصفة عامة، فالمستعمر -في الغالب- كما يسعى إلى الغزو العسكري يسعى إلى الغزو الفكري والحضاري، أي أنّه كما يسلب خيرات البلد يسعى إلى طمس هويتها؛ لكي يسهل اقتيادها وتظل تابعة له. فلا يمكن لحكومة مهما بلغت سذاجتها أو عدم خبرتها السياسيّة أن تجازف بإرسال جيش قوامه ستة وأربعون ألفًا بزعم تحرير شعب ليس على حدودها ولا من دينها أو ملّتها، أو حتى بزعم تنويره أو تحديثه!! فما بالنا والحكومة المعنيّة هنا حكومة فرنسيّة محنّكة تجيد رسم الخطط وتوارث المخطّطات وتمارس الاستعمار بالفعل من قبل تاريخ الحملة بعدة قرون[٢].

١. الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١م)، م. س، ص١١٦.

٢. مئتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين، م. س، ص١٣.

الخاتمة

انتهي بحث موضوع «الاستعمار الفرنسي لمصر في ظروفه الزمانيَّة والمكانيَّة» إلى مجموعة من النتائج، لعل أهمها ما يلي:

أوّلًا- رغم أن الحملة الفرنسيّة على مصر قد أخفقت عسكريًّا ولم تحقّق الأهداف التي جاءت من أجلها، إلّا أنّها نجحت في لفت أنظار القوى الاستعماريّة إلى أهميّة مركز مصر وموقعها الاستراتيجي، فكانت هي المسؤولة عن ظهور اصطلاح «المسألة المصريّة» في عُرف السياسة الدوليّة، حتى لقد أصبحت مصر ميدانًا فسيحًا للتنافس الاستعماري الأوروبي للسيطرة عليها سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا. وهذا ما يبرر قدوم الحملة الإنجليزيّة بعد جلاء الحملة الفرنسيّة بستة أعوام فقط.

ثانيًا- ظهر الوجه الحقيقي للمحتلّ الفرنسي منذ منشور نابليون إلى المصريين، الذي بالرغم مما حواه من الوعود والعبارات الجميلة؛ حوى مبدأ التهديد والوعيد وإنذار المصريين في مادته الثانية «كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تُحرق بالنار». وهو أمر لا يتفق أبدًا مع القواعد الإنسانية في معاملة الشعوب؛ خاصة أنهم قاموا بممارسة أبشع أساليب القتل والتنكيل والتعذيب والبربرية في كافة ربوع مصر في الوجه البحري والقاهرة والصعيد. كما أننا لم نر في منشورات نابليون للإيطاليين أثناء حروب إيطاليا تهديدًا من هذا النوع، وبالفعل قد أحرق الفرنسيون كثيراً من القرى المصريّة، وهذا يعني أنّ نابليون كان ينظر إلى الأمة المصريّة بغير العين التي ينظر بها إلى الأمم الأوروبيَّة.

ثالثًا- تبيّن من خلال هذا البحث كذب مزاعم المستعمر الفرنسي في أنه جاء حاملاً مشاعل التنوير لشعب همجي بلا تنوير؛ فما كانت الإصلاحات السياسيّة التي تمثّلت في دواوين الحكم إلّا وسيلة خبيثة لمعرفة ما يدور في أذهان صفوة المصريّين من العلماء والأعيان. كما كانت الإصلاحات الاجتماعيّة تهدف في المقام الأوّل إلى تغريب المجتمع المصري والقضاء على هويته الإسلاميّة، عن طريق إذاعة الفجور والتحلّل الأخلاقي وإخراج المرأة المسلمة من تقاليدها الإسلاميّة؛ لأنهم أدركوا، من خلال جهود

المستشرقين، أنّ الدين الإسلامي هو العقبة الكؤود لاستقرار السلطات الفرنسيّة في مصر. كما كانت الإصلاحات الاقتصاديّة المتمثّلة في الزراعة والصناعة والتجارة من أجل الاستفادة الفرنسيّة القصوى من ثروات مصر، كذلك كانت الإصلاحات العلميّة والفكريّة كلها تصب في مصلحة الجيش ومساعدته ووضع العِلم في خدمة الحرب والحكومة الاستعماريّة. وأنّ الهدف من البعثة العلميّة المرافقة للحملة لم يكن هدفًا علميًّا إنما كان هدفًا صليبيًّا مغلّفًا بالعلم، شأنه شأن الرحلات الاستكشافيّة التي قام بها الصليبيّون ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي.

رابعًا- أظهرت الحملة الفرنسيّة على مصر مدى ضعف الدولة العثمانيَّة وعدم قدرتها على حماية ولاياتها، فأصبح حلم الولاة والحكام الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانيَّة. كما أظهرت بأن مصر للمصريين وليست لبكوات المماليك الذين حينما سمحت لهم الظروف التحالف مع المستعمر عاونوه ووقفوا ضدّ الشعب المصري، كما فعل مراد بك الذي كان صاحب فكرة حريق القاهرة.

خامسًا- رسخت الحملة الفرنسيّة في وجدان المصريين وعقولهم أن المستعمر لا يبحث إلّا عن نهب ثرواتهم وكنوزهم العلميّة والحضاريّة. وما جاء المستعمر الفرنسي إلّا لوأد اليقظة الإسلاميّة التي بزغ نورها في الشرق، وسرقة النفائس العلميّة التي استماتوا في الخروج بها أو حرقها، واستنزاف خيرات البلاد، والسعي لنشر البدع والمنكرات بين أبناء الأمة، ونشر السفور والخلاعة والمجون والمنكرات لتغييب هويّة المجتمع الإسلاميّة، وإفقاده دينه وحسه الوطني وانتماءه بوصفها ضلالات الماضي.

قائمة المصادر والمراجع

١. الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريّة، ١٩٩٨م.

٢. جلال كشك، محمّد، ودخلت الخيول الأزهر، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٠م.

٣. حبيدة، محمّد، أوروبا في القرن التاسع عشر (بونابرته)- دروس ومحاضرات (٢٠٢٠-٢٠٢١م)، الرباط، ط١، ٢٠٢١م.

٤. الرافعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القومية وتطوّر نظام الحكم في مصر، القاهرة، الهيئة العامّة لقصور الثقافة، ٢٠٢١م.

٥. سليمان نوار، عبد العزيز، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر: أوروبا من الثورة الفرنسيّة إلى الحرب العالمية الثانية، بيروت، دار النهضة العربيّة، د.ت.

٦. سليمان نوار، عبد العزيز، محمود محمّد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩م.

٧. سولية، روبير، مصر ولع فرنسي، ترجمة: لطيف فرج، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٨. الشلق، أحمد زكريا، الغزو الفرنسي لمصر وآثاره (١٧٩٨-١٨٠١)، فصل بكتاب: المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٩م.

٩. طه، جاد، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.

١٠. عبد الحليم عامر، عبد السلام، طوائف الحرف في مصر، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

١١. عبد الرازق إبراهيم، عبد الله، شوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان الحديث المعاصر، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

١٢. عبد الرحيم، عبد الرحمن عبد الرحيم، الريف المصري في القرن الثامن عشر، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٦م.

١٣. عبد العزيز، زينب، مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيين، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥م.

١٤. عبد الكريم الوافي، محمّد، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسيّة على مصر، طرابلس - ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.

١٥. عمر، عبد العزيز عمر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩م)، الإسكندريّة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣م.

١٦. القوصي، عطية وآخرون، الحضارة الإسلاميّة وتاريخ العرب الحديث، القاهرة، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، ٢٠١١-٢٠١٢م.

١٧. ماري مواريه، جوزيف، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيّة على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م.

١٨. محمّد الشناوي، عبد العزيز، الأزهر جامعة وجامعة، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ٢٠١٣م.

١٩. نجيب، عز الدين، وآخرون، موسوعة الحرف التقليدية في مصر، القاهرة، جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة، يناير ٢٠٠٤م.

٢٠. الوصيف، فرج محمّد، مصر بين حملتي لويس ونابليون، المنصورة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨م.